ولن يصل إلى فمه ، وهذا هو شأن الذين يدعون آلهتهم من دون الله ، سواء كانت هذه الآلهة أوثانًا أم أحجارًا أم أشجارًا أم أبقارًا أم أنهارًا أم جبالاً .

﴿ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ فادعوا ما شئتم هذه الآلهة المزعومة ، فلن تلبى طلبكم ؛ لأنها عاجزة كما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣ ، ١٤] فهذا هو شأن تلك الآلهة المزعومة وشأن من يدعونها .

﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ فى ضياع ،وفى ذهاب ؛ لأنه دعاء باطل ، يدعو من لا يستجيب له إلى يوم القيامة : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف : ٥] من أضلّ من هذا ؟! إنه دعاء ضائع هباء : أن يدعو الإنسان من لا يستجيب له فى الدنيا والآخرة،وقد ذكر لنا القرآن من أحوال أهل النار : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ، قَالُوا بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ [غافر : ٤٩ ، ٥٠] وهذه حقيقة فدعاء الكافرين ضائع ضال ذاهب لا جدوى منه ؛ لأنه دعاء من لا يستجيب له .

سجود الكون لله :

ثم قرر القرآن حقيقة أخرى مكملة لحقيقة التسبيح ، تظهر لنا أيضًا صفحة من صفحات هذا الكون ، وتصور الإسلام لهذا الكون ، فهذا الكون فى التصور الإسلامى كون مسبح بحمد الله ، ساجد لله سبحانه وتعالى ولذا قال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ . فكل من فى السماوات والأرض يسجد لله طائعًا كأهل الإيمان ، أو كارهًا كغير المؤمنين ، وهناك من يسجد سجود اختيار شأن المؤمنين من بنى آدم ومن الجن ومن الملائكة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] فالملائكة يسجدون ، والمؤمنون من

بنى آدم يسجدون ، والمؤمنون من الجن يسجدون ، وهناك المخلوقات الأخرى الساجدة لله سجود تسخير ، فالله هو الذى يسخّرها،فهى منقادة مذعنة لله عز وجل ماضية فى رحاب سننه لا تتمرد عليه ؛ ولهذا فالكون كله ساجد لله ، من فى السموات ومن في الأرض وما فى السماوات وما فى الأرض:﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[النحل : ٤٩] فهذه علاقة الكون بالله : علاقة التسبيح والتنزيه،وعلاقة السجود والانقياد ، ليس هناك فى هذا الكون ذرة خارجة عن قبضة الله عزّ وجلّ أو متمردة عليه ، يوجد التمرد فقط بالنسبة لها النوع المكلف المختار ، ولذلك نرى القرآن الكريم قد ذكر فى سورة الحج : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ والدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ١٨] فحينما ذكر المخلوقات غير العاقلة وغير المختارة ذكرها بالعموم والإطلاق : من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وحينما جاء إلى هذا النوع الذى أعطاه الله حرية الإرادة وحرية الاختيار قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ ؛ لأن أناساً آخرين لا يسجدون لله عز وجل ، قد يسجدون لأصنام ، وقد يسجدون للشمس كما حكى الهدهد لسليمان فقال : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٢٤] وقد يسجدون لبشر من دون الله كما قال فرعون وملؤه : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧] إلى آخر هذا السجود لغير الله من البشر،أما المخلوقات الأخرى فهى لا تسجد إلا لله .

فهذه الآية الكريمة تقررهذه الحقيقة ، حقيقة الكون الساجد لربه ، كما قُررت حقيقة الكون المسبح بحمد ربه ، فالكون طوع أمر الله عز وجل ، وبتعبير آخر : مُسْلم لله كما قال الله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] فيسجد هؤلاء المخلوقون ، بل وتسجد ظلالهم الملتصقة بهم ﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ من ذوى الأجسام الكثيفة من الإنسان وغيره ، فهؤلاء ظلالهم أيضاً تسجد لله كما تسجد شخوصهم ، وذلك – على وجه الخصوص – إنما يكون

بالغدو والآصال أى فى البُكَر أوائل النهار ، وفى الآصال : أواخر النهار ، ولعل ذكر هذين الوقتين بالذات ؛ لأن الظلال أى الخيالات التى تظهر فى الضوء تكون ممتدة فيهما أكثر من غيرهما ، وقد يكون المقصود بالغدو والآصال الأوقات كلها كما نقول : هو يفعل كذا صباح مساء ، أى فى كل الأوقات ، أى أن هذا السجود مستمر بكرة وعشيًّا ، غدواً وأصيلاً ، فهو سجود دائم ومستمر ، على خلاف سجود الإنسان الذى قد يحدث فى بعض الأحيان دون بعضها الآخر .

ضرورة تجاوب الإنسان مع الكون فى السجود والتسبيح :

هذه بعض آيات الله تبارك وتعالى فى هذا الكون الذى تتحكم فيه إرادة الله عز وجل ، ذكرها الله للناس ؛ ليتعايشوا مع الكون بقلوب مفتوحة ، ويعلموا أن هذا الكون ساجد مسبّح ، فليكونوا ساجدين مسبحين ، وقد ورد فى الحديث : « أن المؤذن حين يؤذن يتجاوب معه الشجر والمدر وكل شىء » ، وكذلك الملبى فى الحج حينما يلبى ، يلبى معه الشجر والمدر والحجر (١) ، فكل ما حول الإنسان يتجاوب معه فى التسبيح بحمد الله ، والتلبية لله عز وجل كما ذكر القرآن عن سيدنا داود ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ١٨ ، ١٩] ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠] الكون متجاوب مع الله عز وجل تسبيحًا وتحميداً وسجوداً ، فينبغى أن نكون كذلك ، وينبغى ألا نتعامل مع هذه الظواهر بقلوب جامدة ، وقد روى أن الرسول ﷺ كان إذا رأى البرق أو سمع الرعد يقول : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك » (٢) ويقول : « سبحان

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب الحج باب ما جاء فى فضل التلبية والنحر عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يلبى إلا لبى من عن يمينه أو عن شماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ها هنا وها هنا » ورواه ابن ماجة فى كتاب المناسك باب التلبية ، وروى ابن ماجه أيضاً مثل ذلك عن المؤذن إذا أذن ، فى كتاب الأذان .

(٢) حديث « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٢ ص ١٠٠ عن سالم عن أبيه ، ورواه الترمذى فى الدعوات ٤٩ ، وذكره ابن كثير فى تفسيره ج ٢ ص ٥٠٥ ، والنووى فى الأذكار ص ١٦٤ عن الترمذى بإسناد ضعيف عن ابن عمر رضي الله عنهما .

من يسبح الرعد بحمده » [1] ، وكان الإمام على – كرم الله وجهه – إذا سمع الرعد ينظر إلى السماء ويقول : « سبحان من سبّحتَ له » [2] وكذلك كان عبد الله بن الزبير – رضى الله عنهما – يقول : « سبحان من يسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ! هذا وعيد للناس » [3] ، وهكذا ينبغى أن يكون تجاوب الناس مع هذه الظواهر ومع هذا الكون الساجد المنقاد المؤمن المسبّح بحمد الله تبارك وتعالى .

كلمة (قُلْ) فى القرآن :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ ﴾ يخاطب الله رسوله محمداً ﷺ بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ ﴾ ، ومما يلفت العقل والقلب فى القرآن الكريم قول الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ وهى كلمة تتكرر كثيراً في القرآن الكريم [4] ﴿ قُل هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:١] ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ﴾ [الفلق : ١] ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس : ١] ﴿ قُل يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون : ١ ، ٢] ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٤] فهى أمر إلهى من الله تعالى لرسوله ، وهذا الأمر يدل علي أن

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ج ٢ ص ٥٠٥ عن ابن جرير الطبرى ، عن أبى هريرة رفعه أنه كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » ..

(٢) انظر ابن كثير فى تفسيره ج ٢ ص ٥٠٥ ، والنووى فى الأذكار ص ١٦٤ قال الإمام النووى : « وروى الإمام الشافعى رحمه الله فى الأم بإسناده الصحيح عن طاووس الإمام التابعى الجليل رضى الله عنه أنه كان يقول إذا سمع الرعد : سبحان من سبحت له . قال الشافعى : كأنه يذهب إلى قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

(٣) انظر ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٥٠٥ ، وانظر كذلك الأذكار للنووى ص ١٦٤ قال الإمام النووى : « وروينا بالإسناد الصحيح فى الموطأ عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » .

(٤) ورد فعل الأمر « قُلْ » المخاطب به الرسول ﷺ فى القرآن الكريم ثلاثمائة واثنين وثلاثين مرة (٣٣٢) . انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (محمد فؤاد عبد الباقى) ص ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

محمداً ﷺ في هذا القرآن يتلقي ويتعلم فهو مُعَلَّمٌ ، ليس القرآن من صنعه ولا من عمل يده ، ولكن هناك سلطة أعلى منه تأمره وتنهاه وتقول له : قل كذا وقل كذا ، هذه السلطة هى صاحبة القرآن وصدق الله العظيم الذى يقول : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : ٦] ، ولذلك فمحمد يتلقى من ربه ، حين يقول الله له ﴿ قُلْ ﴾ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ ﴾ يريد أن يقرر حقيقة التوحيد ، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية لا إشكال فيه ، فقد كان العرب يقرُّون بتوحيد الربوبية ، ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ من الذى خلق هذه الأجرام فى العالم العلوى والعالم السفلى ، السموات التى ترونها سقفًا محفوظًا فوقكم ، ولا تعرفون عنها شيئًا يذكر ، والأرض التى تقلكم وتعيشون فوقها وجعلها الله لكم ذلولاً ، من خالقها ؟ من مسيّر أمرها ؟ اسأل هؤلاء المشركين من رب السموات والأرض؟ الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى يدعونها من دون الله ، دعوى لا جدوى من ورائها.ولا تنتظر الجواب منهم ، فالجواب معروف ومقرر ، نطقوا به من قبل ، نطقت به ألسنتهم ونطقت به آيات الله فى الكون من فوقهم ومن حولهم « قل الله » أجب أنت يا محمد فهذا هو الجواب المتعين ولا جواب غيره ، وطالما أجابوا به ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِن الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْـــرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ﴾ [يونس : ٣١] ﴿ قُلْ لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ*سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٤ : ٨٩] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾[لقمان: ٢٥، الزمر:٣٨] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩] فتوحيد الربوبية إذن معترف به ﴿ قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ ﴾ لا رب إلا الله ، وادعاء الربوبية لغير الله تزوير للحقيقة ، لا يقبله عقل.

ولا يقبله دين ، ولا يقبله منطق ، ومن هنا فقد أبطل الإسلام كل الربوبيات المدعاة من دون الله أيا كانت عناوينها فلا رب من الحجر ولا رب من البشر ، ولا رب من رجال الدنيا ،ولا رب من رجال الدين ، ودمغ القرآن بالشرك أهل الكتاب ؛ لأنهـــم ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة : ٣١] وكانت دعوة محمد ﷺ إلى قيصر وإلى النجاشى ، وإلى المقوقس وإلى أمراء أهل الكتاب ، دعوة إلى التحرر من هؤلاء الأرباب المزعومين ، ولهذا كان يختم دعوته إليهم بالآية الكريمة من سورة آل عمران : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾[آل عمران:٦٤] .

ماذا عبدوا من دون الله ؟:

﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ﴾ إذا كان رب السماوات والأرض هو الله كما أقررتم بذلك فى مواطن شتى ، وكما تدل على ذلك دلائل الكون ، ودلائل الفطرة ، ودلائل العقل ، فلماذا تتخذون مع الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ؟ وهذه الآلهة التى اتخذوها أولياء من دون الله لتواليهم وتنصرهم ، لا تملك هذه الموالاة ، ولا تقـدر على هذا النصر ، فهذا سفه منهم . إذ المفروض أن الإنسان إذا اتخذ وليًّا يتخذه قادراً على أن ينصره ، وأن يدفع عنه وأن يجلب له النفع ، وأن يدفع عنه الضر ، أما أن يتخذ وليًّا عاجزاً ، فاتخاذه فى هذه الحالة نوع من السفه والحمق والجهل والغباء ! وهذا للأسف هو ما يصنعه المشركون فقد اتخذوا آلهة من دون الله أولياء لهم بزعم أنها تقربهم إلى الله زلفى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر:٣] والله سبحانه وتعالى ليس فى حاجة إلى وسائط كما يفعل الناس إلى ملوكهم وأمرائهم وسلاطينهم ، فباب الله مفتوح لعباده ليس عليه حاجب ولا بواب ، ومن ثمّ فليس فى حاجة إلى وسطاء وشفعاء .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ﴾[يونس : ١٨] فهؤلاء الشفعاء والأولياء لا معنى لاتخاذهم ولا جدوى

من ذلك ؛ لأن الله هو الولى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [الشورى : ٩] وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرًّا ، وبالتالى فهم لا يملكون ذلك لغيرهم ، وهذا هو الواقع ، فهذه الآلهة أعجز ما تكون والله تعالى يقول عنهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] فما الذى جعل الإنسان يتخذ هؤلاء الأولياء ؟ إنه العقل الوثنى والشرك الذى ينحط بالإنسان إلى الدرك الأسفل ، ولذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] فحينما يشرك الإنسان بالله يصبح عقله مباءة للخرافات والأباطيل والأساطير والضلالات ، ويصدق مالا يصدَّق ، ويقبل مالا يُقْبَلْ ، ومن أجل ذلك خاطبهم الله بهذا الاستفهام الإنكارى ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ﴾ ؟! .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ لا يستوى الأعمى والبصير ولا تستوى الظلمات والنور ، فكيف سويتم بين الكافر والمؤمن وبين المشرك والموحد ، وبين المبطل والمحقّ ؟ وكيف سويتم بين الشرك والتوحيد ، وبين الكفر والإيمان ، وبين الباطل والحق ؟ يستحيل أن يستوى الأضداد ولكن هؤلاء سووا بين الشىء وضده ، وبين الشىء ونقيضه ، وهما لا يستويان لا فى المجال الحسِّى ولا فى المجال المعنوى ،والمجال المعنوى أخطر وأشد كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] وذلك لأن العمى الحسِّى مثلاً قد يوقع الإنسان فى حفرة ثم ينجو منها ، حتى لو أصابته جراحة عولج منها ، فإن مات فالموت ليس نهاية المطاف ، ولكن المشكل هو العمى المعنوى ، وكذلك الظلمات الحسية والمعنوية ، فظلمات العقول والقلوب بالكفر والشرك والباطل هى الأخطر .

الله وحده خالق كل شىء :

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ يُعجّب القرآن من فعلهم بهذا الاستفهام الإنكارى فهل التبس عليهم الأمر واشتبه

الطريق ؛ لأنهم وجدوا هؤلاء الأولياء وهؤلاء الآلهة خلقوا كخلق الله عز وجل ؟! فتشابه الخلق عليهم فهذه مخلوقات لله وهذه مخلوقات للشركاء ، وهذه تشبه تلك ، فالتبس الأمر واشتبه ؟ فهم معذورون في ذلك .

لا ليس هناك شيء من هذا .. فهؤلاء لم ولن يخلقوا ذباباً ولا ذرة ولا شيئًا ، والقرآن يؤكد هذا بإقرار هؤلاء أن الذى خلق السماوات والأرض هو الله ﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان : ١١] ، والذين من دونه ما خلقوا شيئًا ، ما خلقوا شبراً ولا فتراً ولا سنتيمتراً ولا مليمتراً واحداً فى هذا الكون ، بل لم يخلقوا درة ، تلك الهباءة الدقيقة ، ولم يخلقوا نواة فى الذرة ولا جزءاً منها ، فكيف جعلوهم شركاء وليس لهم خلق ؟ إن الإله الذى يستحق العبادة هو الخالق الذى خلق هؤلاء وخلق الشركاء أيضاً فهم مخلوقون ، ولهذا قال الله تعالي : ﴿ وَاتَّخَذُوا من دُونه آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان : ٣] ففضلاً عَن أنهم لا يخلقون شيئاً هم مخلوقون : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ من دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل : ٢٠] ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] .

﴿ قُلْ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ هذا التلقين من الله للرسول ﷺ ﴿ قُلْ ﴾ ﴿ قُلْ ﴾ ﴿ قُلْ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَارُ ﴾ الله وحده هو خالق كل شيء فى هذا الكون من فوق أو من تحت ، عن يمين وعن شمال ، وهو خالق الإنسان وخالق الحيوان وخالق النبات وخالق الجماد ، وخالق الأفلاك وخالق الأشياء من الذرة إلى المجرة ، الصغير والكبير من خلق الله ، وتلك الخالقية معنى يؤكده القرآن : أن الله هو الخالق وهو خالق كل شيء ، وهى من أول ما نزل القرآن ، والفوج الأول من الآيات التى أنزلها الله على رسوله ﷺ يؤكد هذا المعنى معنى الخالقية ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ منْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق : ١ - ٤] ﴿ قُلْ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ وهذا ما أقرّته الفطرة وأقرته الدلائل ، ولم نجد أحداً ممن ادّعوا الألوهية يوماً مثل النمروذ فى عهد إبراهيم ، أو فرعون فى عهد موسى ، أو ممن قبلهم

أو بعدهم ادعى لنفسه أنه الخالق أو أنه خلق شيئًا فى هذا الكون ، فلم يقل نمروذ أنا خلقت بل قال : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، وفرعون لم يقل إنه خلق شيئًا،وكيف يقولون : خلقنا السماء والأرض ، وهما مخلوقتان قبلهم ؟ إن أحدًا لا يستطيع أن يدعى هذا ؛ لأن الله خالق كل شىء .

الواحد القهار :

﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الواحد المنفرد بالخلق والإيجاد ، الواحد فى ذاته وصفاته وأسمائه ، القهار الغالب الذى لا يغلبه أحد ولا يعجزه شىء ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٨ ، ٦١] يقهر ولا يُقهر ، يغلب ولا يُغلب ، ولذلك جاءت هذه الصيغة ﴿ الْقَهَّار ﴾ صيغة المبالغة ، فقد يوجد من الناس من يقهر غيره ، يستضعف إنسانًا فيقهره أو يستضعف يتيمًا فيقهره : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ [الضحى : ٩] ولكن لا يوجد إلا الله ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ ، والواحدية والقهّارية صفتان من صفات الله عز وجل لا يشاركه أحد فيهما ، ولذلك نراهما فى القرآن متلازمتين (١) فهذا يوسف عليه السلام يقول : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] ومن لم يعرف هذا فى الدنيا يعرفه يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ، وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] .

توحيد الربوبية دليل على توحيد الإلهية :

والقرآن استدل بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية ، فالمشركون يقرون بتوحيد الربوبية كما تقدم ، ومع إقرارهم هذا اتخذوا أولياء من دون الله ، اتخذوا آلهة مع الله عز وجل !! ، ولذا كان الاحتجاج عليهم بتوحيد الربوبية

---

(١) وردت هاتان الصفتان متلازمتين هكذا « الواحد القهار » فى القرآن الكريم ست مرات فى يوسف (٣٩) ، وفى الرعد (١٦) وفى إبراهيم (٤٨) ، وفى « ص » (٦٥) ، وفى الزمر (٤) وفى غافر (١٦) . انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (محمد فؤاد عبد الباقى) ص ٥٥٤ .

حتى يوحّدوا الله توحيد الألوهية،توحيد العبادة ، فهم لا يعبدون إلا الله،ولا يرجون إلا الله ، ولا يخافون إلا الله ، ولا يركعون ولا يسجدون إلا لله ، ولا يجعلون ولايتهم إلا لله ، فالتوحيد الحق ألا تتخذ غير الله وليًّا ، وألا تبغى غير الله ربًّا ، وألا تبتغى غير الله حكمًا ، وهى عناصر التوحيد التى دلَّت عليها سورة التوحيد سورة الأنعام:﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[الأنعام:١٦٤]﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[الأنعام : ١٤] ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، وهذه الآية التى معنا أرادت أن تجرّ هؤلاء إلى عقيدة التوحيد ، توحيد الإلٰهية ، وأن تلزمهم إلزامًا – ما داموا يعترفون بتوحيد الربوبية – ألا يتخذوا أولياء مع الله ولا شفعاء مع الله ، فهؤلاء الأولياء والشفعاء لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم – فضلاً عن غيرهم ضرًّا ولا نفعًا ، والله وحده خالق كل شىء وهو الواحد القهار .

* * *

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

مثل الحق والباطل :

فى هذه الآية ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للحق وللباطل ، للحق وأهله ، وللباطل وحزبه ، مما يراه الناس ويشهدونه من حولهم ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ وهو المطر الذى ينزل من السماء ، سواء كانت السماء بمعنى السحاب ؛ لأن السماء فى اللغة هى كل ما علاك ، والسحاب يعلونا فيمكن أن يطلق عليه سماء ، والسقف كذلك يمكن أن يطلق عليه سماء ، أو كانت السماء بمعنى الجهة جهة السماء ، لأن المطر ينزل من فوق ، وهذا الماء النازل من السماء تسيل به الأودية وتجرى ، والأودية هى المنخفضات بين الجبال التى يجرى فيها الماء ، وقوله تعالى [**بقدرها**] أى على قدر سعة تلك الأودية وعلى قدر عمقها ، فهناك واد يتسع للقليل وهناك وادٍ يتسع للكثير .

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ هذا الماء النازل من السماء تجرى به الوديان وتسيل به يمينا وشمالاً فيحتمل سيله زبداً رابياً ،والزبد الرابى : هو تلك الرغاوى المنتفخة ، وهذه الرغاوى أو الزبد الذى يحمله السيّل ذكر له القرآن نوعًا آخر فى قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ فهناك زبد يحمله السيّل ، وهناك زبد آخر ينتج من المعادن إذا صُهرت فى النار ، فيبقى المعدن المنصهر فى القاع ، ويطفو على سطحه الخبث ، والأشياء التى خلطت بهذا المعدن وليست منه ، وهو ما سمّاه القرآن زبداً ، وقد جاء فى الحديث « مثل المؤمن كمثل الحديدة تدخل النّار فيظهر خبثها ويبقى طيّبها » ، والصائغ يوقد النار على الذهب والفضة ابتغاء حلية يتزين الناس بها وخاصة النساء ، أو أن ما يوقد عليه في النار يكون للمتاع يتمتعون به وينتفعون به كما فى الحديد والنحاس وغير ذلك من المعادن .

وكلا الزّبدين ، زبد السيل وزبد المعادن المختلفة ، لا قيمة له ولا نفع فيه ولا جدوى ؛ لأنه شيء لا بقاء له ، فهو غير متماسك وسرعان ما يتطاير ، وهو فقاعة ورغوة طافية عالية منتفخة كبيرة الحجم ، تذوب فى لحظة ولا تبقى ، هذه الفقاقيع أو الرغاوى التى نراها فوق السيول لها صفات ثلاث : الخفة ، فهى خفيفة تطفو وتعلو لخفتها ، وليست لها قيمة ، وسرعة التطاير ، والذوبان والزوال ، لذالك فهى تزول ويبقى الماء الحقيقى فى الأعماق ثابتًا مستقرًّا ، يشرب منه الناس فيرتوون ، وتشرب منه الأنعام فترتوى ، ويتطهر منه الناس ، وتستفيد منه الأرض ، فيحييها الله به بعد موتها ، وهذا هو شأن الماء ، وفرق بين الماء والزبد ، فالزبد ليس له بقاء ولا تماسك وإن كان ظاهرًا منتفخًا طافيًا عاليًا ، أما الماء فإنه مستقر ثابت راسخ فى الأعماق ، وهو الذى ينفع الله به الناس . ومثل ما سبق يقال أيضًا عن زبد الذهب والفضة والنحاس والحديد ، فالفائدة فى تلك المعادن ، ولا فائدة فى زبدها أو خبثها ؛ إذ المعادن هى الباقية وهى الأصيلة ، سواء منها ما كان يُتحلّى به ويُتزين أم ينتفع به ويستمتع .

وهذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل ، فالحق هو الذى يستقر فى القلوب ، والله تعالى الذى أنزل من السماء ماءً هو الذى أنزل من السماء قرآنًا ، فكلاهما نازل من السماء ،والقرآن الذى أنزله الله من السماء تلقّته القلوب والعقول كلّ على قدره ﴿ فَسَالَت أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ فالناس تأخذ من القرآن على قدر سعة أوديتهم فهذا يأخذ بمقدار ، وذلك يأخذ بمقدار ، وهذا ابن عباس رضى الله عنهما فقهه الله فى الدين ، وعلّمه التأويل ، واستجاب الله دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم له (١) فسال واديه بالكثير على خلاف غيره .

والقرآن الذى شبهه الله بالماء النازل من السماء فاستقر فى القلوب وثبت الحق الذى أنزل الله به هذا القرآن ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾[الإسراء:١٠٥] ،

---

(١) إشارة إلى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب الوضوء باب وضع الماء عند الخلاء عن ابن عباس ، وكذا رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عبد الله بن عباس ، وكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده فى مواطن متفرقة .

تأتى فى بعض الأحيان شبهات تدور في ذهن الإنسان وشكوك أو وقفات معينة حول القرآن ، وهذه أشبه بالزبد الذى يذهب ويبقى الحق .

وإذا نظرنا إلى الإسلام والجاهلية أو إلى الإيمان والكفر أو إلى الحق الذى بعث الله تعالى به محمداً ﷺ وكل ما عداه من ديانات وفلسفات ونحل ودعاوى وجدنا أن الحق الذى بعث الله به محمداً ﷺ هو أشبه شيء بالماء المستقر الذى يحيى الله به ويروى ، وأن الأشياء الأخرى هى أشبه شيء بالزبد الطافى ، وإن ارتفعت وعلت وظهرت وطفت وانتفخت وكبرت ، فشأنها ألا تبقى وأن تزول ؛ لأنها باطل ، والباطل عمره قصير ، وإن جلجل ووجد له أبواقاً فسرعان ما تنكشف عوراته ، وسرعان ما يتزلزل ويزول ، ولذلك قالوا : دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، وعلى ذلك فلا ينبغى لأهل الإيمان وحملة رسالة الحق أن ييأسوا إذا وجدوا يوماً أن الباطل قد شمخ بأنفه أو ارتفع برأسه ، فإن الباطل لا يعمَّر ولا يستمر طويلاً ، فسنّة الله عز وجل أن الزبد يذهب جفاءً وأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض .

الحق ينفع الناس :

وقد عبَّر القرآن عن الحق بما ينفع الناس ، فالحق دائماً هو الذى ينفع الناس وإن ضير أهله فترة من الزمن ، وإن أوذوا فى أنفسهم ، أو ابتلوا فى أهليهم وأموالهم ، أو صودرت أموالهم ، أو عطّلت مصالحهم ، أو رمى بهم في السجون والمعتقلات ، فليس معنى هذا أن الباطل انتصر ، لا بل الحق هو الذى ينتصر ويبقى ، فهو الذى ينفعهم ، والباطل أبداً لا ينفعهم فى الدنيا ولا ينفعهم في الآخرة ، بل إن الحق ينفع كل الناس : المؤمن منهم وغير المؤمن ، فحينما نصر الله الإسلام كان ذلك خيراً للبشرية كلّها ، وكان رحمة للعالمين ، والعدل يعم وينفع المسلم وغير المسلم ،والرحمة تشملهما .

وقد ألّفت كتاباً اسمه « الإيمان والحياة » انطلقت فيه من أن الإيمان بالحق ، والإيمان بالله ورسالاته والدار الآخرة حق ونافع ، ينفع الفرد وينفع المجتمع ، وهو

ضرورة للفرد ؛ ليطمئن ويسعد ، وهو ضرورة للمجتمع ؛ ليبقى وليتماسك ، فالحق نافع فى الدنيا قبل الآخرة ونفعه فى الآخرة عظيم (١) .

هكذا ضرب الله مثلاً للحق والباطل بالماء والزبد أو بالمعدن وزبده ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ أى مثل الحق ومثل الباطل : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾ .

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ؛ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [الرعد : ١٨] .

عاقبة المستجيبين لله :

ثم بيَّن الله تبارك وتعالى عاقبة كل من الفريقين أهل الحق وأهل الباطل ، الذين استجابوا لدعوة الحق والذين أعرضوا عن دعوة الحق ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى ﴾ الذين لبوا نداء الحق ودعوة الله عزَّ وجلَّ على ألسنة رسله ، وعلى لسان خاتمهم محمد ﷺ ، وفى كتابه الخالد الخاتم ، أولئك لهم الحسنى ، والحسني مؤنث أحسن ، وفى القرآن : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ [النحل : ٣٠] وفى الآخرة لهم الحسنى ، والحسنى هى الجنة أى المثوبة الحسنى ، والحياة الحسنى العليا .

الذين استجابوا لربهم لهم الحسنى ، أى الجنة بما فيها مما لا عين رأت ولا

---

(١) يقول فضيلة الشيخ يوسف القرضاوى فى مقدمة كتابه « الإيمان والحياة » ص ٥ : « فإننا نوقن أن أنفع شيء للناس هو الحق ، وأن أضرّ شيء بالناس هوالباطل ، وقد ضرب القرآن مثلاً للحق بالماء السائل والمعدن النافع ، وللباطل بالزبد الرابى على وجه الماء حين يسيل به الوادى ، أو الرغوة المنتفخة على وجه المعدن حين يوقد عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع .

ثم قال تعالى معقبًا على هذا التمثيل : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾ .

والذى يمكث فى الأرض هو الحق وهو الذى عبّر عنه القرآن بـ « ما ينفع الناس » إنه ينفعهم ماديًّا ومعنويًّا ، ينفعهم أجسامًا وعقولاً وقلوبًا ، وينفعهم أفرادًا وجماعات وينفعهم دنيا وآخرة » أ . هـ .

أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر [1] وهذا لا ينافى أن لهم فى الدنيا حسنة ، فطبيعة الاستجابة والإيمان أن له أجرًا فى الدنيا وجزاءً معجلاً : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

عاقبة غير المستجيبين لربهم :

وأما الذين لم يستجيبوا لربهم ، وقابلوا هذه الدعوة بآذان صُمّ ، وأعين عُمْى ، وقلوب غُلْف ، من الذين قالوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : ٥] فهؤلاء – يوم القيامة – لو كانوا يملكون كل ما فى الأرض من أموال وفضة وذهب ، ومن متاع وحرث ، ومن زروع وثمار ، ومن كل ما يحرص الناس عليه ويتهافتون عليه فى كل الأرض ، مشرقها ومغربها ، وشمالها وجنوبها ، لو أنهم يملكون هذا كلّه ومثله معه لافتدوا به ، أى لفدوا به أنفسهم من عذاب الله عزّ وجلّ من سوء ما ينتظرهم كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٩١] وفى سورة المائدة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٦] وهم لا يملكون شيئًا ففى يوم القيامة يأتون كما صورهم القرآن : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام : ٩٤] ويأتون حُفاة عراة غرلاً كما ولدتهم أمهاتهم [2] ولو فرض أنهم يملكون ملء الأرض ذهبًا ومثله معه لافتدى

---

(١) إشارة إلى الأحاديث التى رواها البخارى فى صحيحه فى كتاب بدء الخلق ص ٨ وفى كتاب التفسير عند سورة السجدة وفى كتاب التوحيد ، ورواها مسلم فى صحيحه فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها وفى كتاب الإيمان ، ولفظ مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : قال الله عز وجل : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. » . كما رواه الترمذى فى كتاب التفسير وابن ماجة فى الزهد والإمام أحمد فى المسند .

(٢) إشارة إلى الأحاديث الكثيرة التى رواها البخارى فى صحيحه فى كتاب الأنبياء =

أحدهم به نفسه من العذاب ،ولماذا يفعلون هذا ؟ لأن عذاب الله شديد ، وما ينتظرهم شيء عظيم ، ولذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ فهناك حساب يسير ، وهناك حساب عسير ، وقد عبَّر عنه بسوء الحساب ، وهو كما عبّر عنه إبراهيم النخعى وبعض السّلف أن يحاسبوا على جميع ذنوبهم فلا يغفر لهم شيء ، ولا يتجاوز لهم عن شيء ، أما الحساب اليسير ففيه يتجاوز عن بعض الأشياء ، ويترك بعضها ويستر في بعضها،والهلاك بعينه أن يحاسب على كل شيء فهذا سوء الحساب ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ ، وهذا إذا قبلت حسناتهم وهى لا تقبل ؛ لأن الكفر يحبط الحسنات : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : ٢٣] ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَىْءٍ ﴾ [إبراهيم : ١٨] . فتلك الأعمال حطمها الكفر والشرك والعياذ بالله :﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور : ٣٩] وأى حساب أسوأ وأعسر من ذلك ألا يجد حسنة له وألا يتجاوز عن سيئاته ؟! .

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ المأوى : هو ما يأوى إليه الإنسان ، ليقيه من شدة الحرّ ومن شدة القرّ ، من البرد القارس الزمهرير ومن الحرّ اللافح الذي يشوى الوجوه ، ومن عوادى الجو والطبيعة ، فإذا كان مأوى الإنسان جهنم والعياذ بالله فأى مأوى هذا ؟ أبدل أن يأوى الإنسان إلى ظل ظليل أو مسكن مريح يأوى إلى جهنّم ؟! إنه لبئس المأوى .

﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ المهاد : هو ما يفترش ، ليجلس عليه الإنسان ويستريح مثل : مهاد الطفل الذى يفرش له لينام عليه ولا يشعر بما

= والتفسير والرقاق ، ورواها مسلم فى صحيحه أيضًا فى كتاب الجنة وفى لفظ له عن ابن عباس سمع النبى ﷺ يخطب وهو يقول : « إنكم ملاقو الله مشاة حفاة عراة غرلاً » . كما رواها أيضًا الترمذى والنسّائى والإمام أحمد والدارمى .

يقلقه ، فإذا كان هذا المهاد هو الأرض نفسها ، كما يحدث فى الأماكن المبتلاة بالحروب والمجاعات مثل : البوسنة والهرسك (١) ، والصومال (٢) وغيرها فيقال : افترشوا الأرض والتحفوا السماء ، أى صارت الأرض لهم فراشاً فهذا شديد وغير مريح ، وأشد منه أن يقال : افترشوا الحصباء ،وأشد منهما أن يقال : افترشوا الشوك فهم يتقلبون عليه ، وإذا كان الفراش هو النار والجمر – والعياذ بالله – فبئس الفراش أعاذنا الله منه ، قال الشاعر :

جسمى على الشمس ليس يقوى ولا على أهـــون الحرارة

فكـــيف يقـــوى على جحيم وقـــودها الناس والحجارة ؟

من لفتات صاحب (الظلال) :

وصاحب الظلال الشهيد سيد قطب – رحمه الله (٣) – له لفتات طيبة فى

(١) بعد أن سقطت الشيوعية فى أواخر ثمانينيات هذا القرن العشرين تفرقت دولها أشلاء ممزعة ودويلات صغيرة وتقطعت أوصال بعض الدول والدويلات التى جمعها القهر الشيوعى الأحمر وبدا يظهر للناس مسلمو تلك الدول فمن ذلك بعد تفكك يوغوسلافيا ظهرت إلى الوجود جمهورية البوسنة والهرسك المسلمة فى قلب أوربا ولم يمض عام على استقلالها حتى بدأت الحرب بين دولتى صربيا وكرواتيا وما لبث أن شملت الحرب البوسنة والهرسك فاجتمعت عليها صربيا وكرواتيا والجبل الأسود من جمهوريات يوغوسلافيا المفككة ومارسوا ولا يزالون – حرب إبادة عرقية يندى لها جبين العالم على مسمع ومرأى من أوربا وأمريكا ودول العالم التى تجاهر بحقوق الإنسان وتضمر العداء والبغض للمسلمين ، وحتى الدول الإسلامية تخاذلت عن نصرة المسلمين فى البوسنة والهرسك إنها طامة العصر وجريمته التي تكتب بدماء مسلمى البوسنة والهرسك على ناصية تسعينيات القرن العشرين .

(٢) والصومال كذلك من الدول التى يمكن أن يقال عنها : إنها من ضحايا الدكتاتورية وحكم الطواغيت فقد تركها محمد سياد برى (آخر رئيس قبل المجاعة والحرب) بعدما عصف بها وبأهلها وتفرعن حتى قتل العلماء وداس القرآن وشّرع للناس شرائع غير فيها دينهم فكانت المجاعة والحرب الأهلية ومطامع الصليبيين تحت رايات الأمم المتحدة نسأل الله العافية .

(٣) هو الأستاذ الأديب المفكر والشهيد من بعد ذلك سيد قطب إبراهيم مفكر إسلامى مصرى ولد فى قرية « موشا » من قرى محافظة أسيوط بصعيد مصر عام ١٣٢٤هـ الموافق ١٩٠٦م ، درس وتخرج فى كلية دار العلوم ، ومن عجب أنه ولد فى نفس العام الذى ولد فيه حسن البنا =

تفسير القرآن الكريم ، وخصوصاً فى الجانب البلاغى والبيانى للقرآن الكريم ، فهو رجل ذوّاق قلّ أن يوجد له نظير فى التذوق البلاغى للعربية بصفة عامة ، وللقرآن بصفة خاصة ، وله كتابا : التصوير الفنى فى القرآن ، ومشاهد القيامة فى القرآن ، وقد طبَّق – رحمه الله – قواعده فى التصوير الفنى فى القرآن ، على كتابه الشهير « فى ظلال القرآن » ، وأشار إلى ميزة من مزايا سورة الرعد وهى ميزة التقابل فى الأساليب ؛ إذ يعرض سبحانه الأشياء متقابلة ، يقول صاحب الظلال : « إنه جو المشاهد الطبيعية المتقابلة : من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، وليل ونهار ، وشخوص وظلال ، وجبال راسية وأنهار جارية ، وزبد ذاهب وماء باقٍ ، وقطع من الأرض متجاورات مختلفات ، ونخيل صنوان وغير صنوان .. ومن ثمّ تطّرد هذه التقابلات فى كل المعانى وكل الحركات وكل المصاير فى السورة ، فيتناسق التقابل المعنوى فى السورة مع التقابلات الحسيّة ، وتتسق فى الجو العام .. ومن ثمّ يتقابل الاستعلاء فى الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر ، ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد ، ويتقابل من أسرّ القول مع من جهر به ، ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار ، ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق ، ويتقابل تسبيح الرعد حمداً مع تسبيح الملائكة خوفًا ، وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء ، ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى ، ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه ، ويتقابل المحو مع الإثبات فى الكتاب .. وبالإجمال تتقابل المعانى ، وتتقابل الحركات ، وتتقابل الاتجاهات .. تنسيقًا للجو العام فى الأداء »[1] .

= الإمام الشهيد وتخرج فى نفس الكلية ، وقد عمل بجريدة الأهرام وكتب فى مجلتى الرسالة والثقافة وعيَّن مدرسًا للغة العربية وموظفًا فى وزارة المعارف ثم مراقبًا فنيًّا للوزارة ثم أوفد إلى أمريكا وهناك سمع بموت حسن البنا وفرح الصليبيون بذلك فلما عاد تحولت فكرته إلى فكرة إسلامية وانضم إلى الإخوان المسلمين وسجن وعذب وأعدم عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٦) وأهم كتبه على الإطلاق كتاب « فى ظلال القرآن » ستة مجلدات ، ومنها « معالم فى الطريق » ، و « التصوير الفنى فى القرآن » وغيرها .

(١) فى ظلال القرآن – لسيد قطب ج ٤ ص ٢٠٤٠ ، ٢٠٤١ ط دار العلم للطباعة والنشر – بجدة .

ويمضي هذا التقابل فى السورة فتتحدث عن السموات والأرض ، الذى رفع السموات بغير عمد ، ومد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ، وتتحدث عن مغفرة الله وشدة عقابه ، وعن الغيب والشهادة ، وعن رب السماوات ورب الأرض ، وعن الأعمى والبصير ، وعن الظلمات والنور ، وعن الذين استجابوا لربهم وعن الذين لم يستجيبوا له ، وعن الحسنى وعن سوء الحساب .. ونعلم أن الأشياء تتميز بضدها ، وهذا التقابل أسلوب سارٍ في السورة كلها يرينا إلى أى مدى جاء القرآن الكريم ليأخذ بمجامع القلوب ،ويضىء العقول ، بالمعانى من ناحية وبهذا الأسلوب الذى أعجز العرب أن يأتوا بمثله منذ نزل القرآن وقبل أن يكون هناك تشريع ، فهو البيان القرآنى العظيم .

* * *

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ١٩ – ٢٤] .

إنكار يتكرر فى القرآن :

ذكرت السورة الكريمة هنا هذا التعجيب أو الإنكار ، ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ . أيستوى من عرف الحق واستنارت بصيرته بمعرفته وإدراكه واتباعه ومن ضل عن هذا الحق وجهله ؟ وهذا الإنكار يتكرر فى القرآن الكريم فلا يستوى أهل الحق وأهل الباطل : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد : ١٤] ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢] ، أو كما جاء فى هذه السورة : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد :١٦] لا يستويان ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : ٢٤] لا يستوى من عرف الحق بما نصب الله له من الشواهد ، وما أقام عليه من البراهين فى الفطرة وفى الكون ، بالإضافة إلى ما أنزل من الوحى المبين ، ومن عمى عنه ، والمراد هنا : عمى البصيرة ، الذى لا يدرك الشىء رغم وضوحه ونصوعه ، ولكن العيب لا يكمن بالحق الواضح إنما يكمن بداخله هو ، فلم يحاول أن يتعرف على هذا الحق فعمى عنه ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ وهذا إشارة أيضًا إلى ما بدأت به السورة ، فالسورة بدأت بقول الله تعالى : ﴿ الْمَر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ثم أقام الله تعالى الأدلة من الكون على صدق ذلك .

أولو الألباب :

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ أولو الألباب : هم أصحاب العقول ، ومن الناس من يقول : إن القرآن لم يذكر العقل باعتباره شيئًا أو ملكة أو قدرة ،ولكنه ذكر مادة عقل يعقل ، وصحيح أن القرآن لم يذكر العقل بلفظه هذا ، ولكنه ذكره بلفظ الألباب والنهى ، وقد تكررت لفظة الألباب فى القرآن ست عشرة مرة (١) ، وقد عبر القرآن عن العقل باللبّ ، الألباب جمع لبّ ؛ لحكمة ولإيحاء هذا التعبير ودلالته ، فلبّ الشيء هو حقيقته وجوهره ، والأصل فيه أن بعض الثمار كالجوز واللوز لها لبّ وقشر ، فاللُّب : هو الخلاصة التى ينتفع بها من هذه الثمار ، والقشر : هو الغلاف والحماية ، وكأن القرآن يشير بهذا إلى أن جوهر الإنسان هو عقله ، هو هذا الكائن الداخلىّ الذى ميز به الإنسان وكرّم ، ولذلك كان مناط التكليف وأساس الثواب والعقاب ، فهو لبّ الإنسان ، وجسمه ، هو القشر ، وفى ذلك يقول الإمام الراغب الأصفهانى : « إن اللب هو العقل الخالص الذى لا تشوبه الشوائب فهو أخصّ من العقل ؛ إذ أنه خالص من كل شائبة ، من مداخلة الإنف أو معارضة الوهم ، أو نحو ذلك » ، ويقول أيضًا : « كل لب عقل وليس كل عقل لبًّا » .

تنويه الإسلام بالعقل :

على ذلك فالذى يتذكر ويتنبه هم أولو الألباب ، أصحاب العقول الخالصة المصفاة ، ولا يوجد دين نوّه بالعقل وأصحابه مثل : دين الإسلام (٢) ، وبعض الأديان تخاف من العقل أو ما يتعلق به ، وفى الإسلام والقرآن اعتبر أن أولى الألباب هم الجديرون بمعرفة أسرار الله تعالى فى حكمه وشرائعه ، فهم الذين يدركون حكمة شرعية القصاص كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] وهم الذين يدركون أيضا حكمة الله وأسراره فى خلقه وكونه : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا

---

(١) وتكررت لفظة النهى مرتين فى القرآن كله فى سورة طه .

(٢) انظر كتاب « العقل والعلم فى القرآن » للشيخ القرضاوى ، نشر مكتبة وهبة .

وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] فهم يؤمنون أن الله لا يشرع شيئًا عبثًا ولا يخلق شيئًا باطلاً .

وأولو الألباب : هم الذين يعتبرون بالتاريخ وقصص القرآن فلا تمر على أسماعهم وحسب ، ولكنها تمر على قلوبهم ولذلك نجد في القرآن : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٢١] .

وهم الذين ينتفعون بآيات الله الكونية والتنزيلية يقول الله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٩] ﴿ هَـذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

وهم الذين يعرفون قيمة العلم ويتميزون عن الجهلاء : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وهم الذين يستمعون المواعظ والأقوال فيتبعون أحسنها ، ويميزون بين الحسن والأحسن ، ولأنهم أصحاب عقول ، فهم يرنون دائماً إلى ما هو أحسن : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ١٨] .

وهم الذين يؤمنون بالمحكمات ويصدقون بالمتشابهات ، ولا يهلكون عندها ، بل لرسوخهم يقولون عند المتشابه : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] فهؤلاء هم أولو الألباب أصحاب العقول الذين وصفهم القرآن بأنهم يتذكّرون ولذلك يتكرر ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الرعد:١٩، الزمر : ٩]﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[البقرة : ٢٦٩، آل عمران : ٧] وفي سورة البقرة : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة:٢٦٩] .

و هكذا تأتي بصيغة الحصر ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ بما وإلا

(إنما) فهى تفـيد الحصـر أيضًا ﴿ إِنَّمَا يَتذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ أى لا يتذكر إلا هم .

لماذا وصف أولو الألباب بالتذكر ؟ :

وهذا يدلنا على أن الأصل فى الحقـائق أنها معروفة ؛ ولكنها تنسى ، مع أن المذكرات بها كثيرة ، مذكرات من داخل الفطرة الإنسانية ، ومذكرات من خارج الفطرة مما بث الله فى الكون من آيات ، ومذكرات مما أنزل الله تعالى من وحى كما قال تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآن لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠] فالمذكرات كثيرة وما على الإنسان إلا أن يزيح غبار الغفلة والنسـيان عن فطـرته فيتذكر إذا كان من أهل العقل ﴿ إِنَّمَا يَتذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَاب ﴾، أما غير هـؤلاء فيدعون الغفـلة ويدعون النسيان يغطيان على عقولهم ، فلا يذكّرون شيئًا ويعيشون فى غفلتهم ونسيانهم ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] و ﴿ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩] .

لوحة قرآنية لأولى الألباب :

وأولو الألباب أصحاب العقول وصفهم الله بأوصاف عدّة ، إيمانية وأخلاقية وإنسانية ، والقرآن يعرض لوحات لبعض النماذج البشرية ، ليتأسى بها الناس ومن هذه النماذج : أولو الألباب ولوحتهم ، ومنها : نموذج المتقين ولوحتهم فى أول سورة البقرة ، ومنها نموذج المؤمنين فى أوائل سورة الأنفال وأوائل سورة المؤمنون ، ومنها نموذج عباد الرحمن فى أواخر سورة الفرقان وغيرها .

الوفاء بالعهود والمواثيق :

هذه النماذج لوحات فيها باقة من السّمات والصفات الربانية والأخلاقية المتنوعة ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ فأول ما وصفهم الله تعالى به ، أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، وعهد الله : هو ما عهد به إليهم من الإيمان به وتوحيده عزّ وجل وطاعة رسله ، وهو عهد الله الذى غرسه فى فطر البشر حين أخـذ عليهم العهد قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وسواء كان هذا من باب

الحقيقة أنه أخذ فعلا من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، وهو ظاهر النص ، أو كان هذا من باب التصوير كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، فهو عهد غرسه الله فى الفطرة ، ثم جاء الوحى مؤكداً له ، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى فى سورة يس:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى ، هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ ، ٦١] فهو عهد للناس كافة ، ثم جاءت عهود الله المنزلة من النبيين ، والمفصلة بالأوامر والنواهى والأحكام والشرائع .

ويمكن أن يكون عهد الله هو ما عاهد الإنسان عليه ربه مثل أن ينذر نذراً لله سبحانه وتعالى ، ومثل : أن يعاهد الله على شىء بينه وبين نفسه وينفذ هذا العهد ولا يفعل ما فعله بعض المنافقين الذين حكى الله عنهم فى سورة التوبة : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِه لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِه بَخِلُوا بِه وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥ ، ٧٦] ، كما يمكن أن يكون عهد الله عز وجل هـــو كلّ ما يتعـــلق بالإنســـان مع ربه ، وكلّ ما يتعلق بالإنسان مع الناس ، فكلّها عهود أمر الله أن توفىّ : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل : ٩١] .

فمن صفات أولى الألباب : الوفاء بعهد الله ، وهى من صفات أهل البر كما فى الآية الجامعة : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة : ١٧٧] على عكس صفات المنافقين الذين إذا عاهدوا غدروا ، وإذا خاصموا فجروا ، وإذا ائتمنوا خانوا ، وإذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا (١) فشتان بين الفريقين .

---

(١) إشارة إلى الأحاديث الكثيرة التى رواها البخارى في صحيحه فى كتب متفرقة فى الإيمان والشهادات والمظالم والوصايا والجزية والأدب ، ومن لفظ له فى كتاب المظالم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقًا أو كانت فيه خصلة =

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ ولا ينقضون الميثاق تأكيد للوفاء بالعهد ، فلا يتركون الوفاء بالعهد لمصلحة تبدو عاجلة ، وإن كان بعض الناس لا يبالى بما عاهد عليه الله وما عاهد عليه الناس ، فالمسلم لا ينقض الميثاق وإن تبـــدت له مصلحة ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْـــدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٤] حتى ولو كان هذا العهد مع كافر ، فالقرآن قدّم رعاية المواثيق مع الذين بينهم وبين المسلمين مواثيق على نصرة الذين لا يعيشون فى دار الإسلام من المسلمين ، فقال : ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

فأولو الألباب إذن يحترمون المواثيق أيًّا كان نوع هذا الميثاق ، والمواثيق كثيرة مثل : ميثاق الزوجية فعلى الإنسان أن يحترم هذا الميثاق كما قال الله تعالى للأزواج إذا أراد الرجل أن يتزوج بامرأة أخرى أو يستبدل زوجة بزوجة : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء : ٢٠ ، ٢١] فهذا هو ميثاق الزواج الذى يسمونه الرباط المقدّس ، والله سبحانه وتعالى سمّاه (ميثاقًا غليظًا) مثل الميثاق الذى أخذه الله على الأنبياء فقد سمّاه ميثاقا غليظًا ، دلالة على قوة هذا العقد .

والعقود التى بين الناس بعضهم وبعض ينبغى أن تحترم ولا تنقض ﴿ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ والألف واللام فى قوله الميثاق : إما أن تكون للاستغراق وإما أن تكون للجنس ، والمعنى لأى ميثاق ، وإما أن تكون للعهد . الميثاق القديم ميثاق ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وإما أن تكـــون خاصا بعد عامَ أو عامّا بعد خاص ، أو أن تكون تأكيداً وهذا كله محتمل .

والخلاصة أن القرآن يركز كل التركيز على الوفاء بالعهود والمواثيق فبهذا

= من أربع كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » ، ورواه أيضا عن أبى هريرة ، كما رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإيمان ، والترمذى فى الإيمان ، والإمام أحمد فى المسند .

الوفاء تسير الحياة سيراً حسناً ويتبادل النّاس الثقة فيما بينهم ما دامت العقود محترمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١] وما دامت العهود مرعية غير منقوضة ولا منكوثة ، وهذا ما يريده الإسلام ، كما فعل النبى ﷺ حينما عاهد المشركين فوفّى لهم ، وحينما جاءه بعض الناس يريد أن يساعده عليهم بعد أن عقد بينه وبينهم عقد الصلح قال : لا ، نفى لهم ونستعين الله عليهم (١) .

وصل ما أمر الله بوصله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ ومن أوصاف أولى الألباب هؤلاء الذين عرفوا الحق وأدركوه وآمنوا به واتبعوه أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، بهذا التعميم والإجمال الذى يَعنى كل العلائق والصلات المتنوعة والمختلفة فى الحياة ، من رَحِم وزوجية وجوار وصحبة وزمالة ، فهى مما أمر الله به أن يوصل ، أى أن تتصل وتلتئم وتتلاحم ولا يحصل بينهما جفوة أو قطيعة ، فالإسلام جاء ؛ ليوثق الصلة بين الله وعباده ، ويوثق الصلة بين الناس بعضهم وبعض ، بالأخوة الواشجة ، ففضلاً عن الصِّلات الخاصة كالرحم والزوجية والمصـــاهرة والجوار، هناك الصِّلات العامة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] . فكل المؤمنين ينبغى أن يوصل ، أى ينبغى أن ينصر على من يظلمه كما فى الحديث« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (٢) ، ويكون فى حاجته فيسلم عليه إذا لقيه،ويشمته إذا

---

(١) الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الجهاد باب الوفاء بالعهد عن حذيفة بن اليمان قال : « ما منعنى أن أشهد بدراً إلا أنى خرجت أنا وأبى حُسيل ، قال : فأخذنا كفار قريش قالوا : إنكم تريدون محمدا فقلنا : ما نريده ، ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لتنصر فن إلى المدينة ولا نقاتل معه فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر فقال : انصرفا نَفِى لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم » ، كما رواه الإمام أحمد فى مسنده .

(٢) رواه البخارى فى مواضع متفرقة من صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما وفى لفظه :« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه،ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته . . »

عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويتبع جنازته إذا مات [1] ويحفظه ، إذا غاب ، وينصح له ، ويذّب عنه ، ويساعده عند الشدة ، بمقتضى الأخوة التى جاء بها الإسلام ، وهذا كله داخل تحت قوله تعالى : ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ ، وقد ذكر المفسرون هنا الأرحام والجيران والأصحاب والخدم وكل من له تعلق بسبب حتى الهرة والدّجاجة كما ذكر العلامة الزمخشرى فى الكشاف عن الإمام الزاهد العابد الفقيه ، الفضيل بن عياض : « أن جماعة دخلوا عليه بمكة ، فقال لهم : من أى البلاد أنتم ؟ قالوا : من خراسان ، فقال : اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أنكم إذا أحسنتم الإحسان كلّه ، وأسأتم إلى هرة أو دجاجة لم تكونوا من المحسنين » ! وهذا مأخوذ من الحديث : أن امرأة دخلت النار فى هرّة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض [2] . فالإحسان مطلوب إلى كل ذى كبد رطبة ، إلى كل كائن حىّ ، وهذا داخل أيضاً فى قوله : ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ .

أثر الوازع الإيماني :

ثم ذكر القرآن دافعهم إلى هذا ، ومفتاح هذا الوصل ؛ ﴿ وَيَخْشَوْنَ

= من كتاب الإكراه ، كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه باختلاف عن لفظ البخارى ، ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه والإمام أحمد بن حنبل .

(١) إشارة إلى الأحاديث الكثيرة التى رواها البخارى فى صحيحه من حديث البراء بن عازب ومن حديث أبى هريرة ، ومسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة ، وفى لفظه – فى كتاب السلام باب من حق المسلم للمسلم ردّ السلام – قال : قال رسول الله ﷺ : « حق المسلم على المسلم ست قيل : ما هن يا رسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلّم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » كما رواه الترمذى وابن ماجه والإمام أحمد .

(٢) حديث صاحبة الهّرة التى ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً رواه البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى مواضع متفرقة (بدء الخلق والأنبياء والمساقاة) ورواه مسلم فى صحيحه فى مواطن شتى (الكسوف البر ، التوبة) عن جابر بن عبد الله ، كما رواه النسائى وابن ماجه والدارمي والإمام أحمد .

رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ فخشية الله عزّ وجلّ هى هذا المفتاح ، وقد ذكر الخشية مع الله ، وذكر الخوف مع سوء الحساب ؛ لأن الخشية خوف مع نوع من التعظيم للمخوف ومع شيء من العلم بقدره ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] فهم لكونهم علماء يعرفون مقام الله عزّ وجلّ وبالتالى يخشونه .

وبعضهم يقول إن الخشية تكون إذا كان المخشىّ عظيما ، وإن كان الخاشى قويًّا بخلاف الخوف ، وللعلامة الألوسي هنا كلام طيب قال : « معظم الفروق اللغوية بين الألفاظ بعضها وبعض هى أغلبية لا كلّية .. فما من فرق لغوى إلا وقد يعكّر عليه بمثال معين » ..

والتعبير ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ يعطى الخشية نسجًا من الرجاء ، فإنه لم يقل : يخشون الجبّار القهّار ، ولكنه قال : يخشون ربهم كما فى بعض الآيات ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [سورة ق : ٣٣] فذكر الرحمن يشعر أنها خشية ممزوجة بنوع من الرجاء ، فهم يخشون الله الذى ربّاهم بنعمه ورعاهم بفضله ، وغمرهم بإحسانه من قرونهم إلى أقدامهم ، فهو ربّهم : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى : ٢ ، ٣] ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] .

﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ وتتمة خشيتهم من الله عزّ وجلّ ، أنّهم يخافون سوء الحساب ، أى إنهم يستحضرون الآخرة ، وليست الآخرة غائبة عنهم ، فهى نصب أعينهم ، وهذا شأنهم ، فإنهم لا يعيشون بمعزل عن يوم القيامة ، كما هو شأن كثير من الناس الذين لا يرجون لقاء الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ [يونس : ٧] فهذا صنف من الناس ، أما هؤلاء الذين يخشون ربهم ، فإنهم يستذكرون الآخرة ويستحضرونها ، وهذا من المعانى الربانية التى جاء بها الإسلام .

وسوء الحساب : هو المناقشة فيه والاستقصاء فيه ، فهناك الحساب اليسير الذى لا مناقشة فيه والذي يمر سريعًا ، ولكن إذا أوقف الإنسان للمساءلة

ونوقش : ماذا فعلت بكذا ؟ وكيف فعلت كذا ؟ ولم فعلته ؟ فهذا هو الحساب العسير الذى يخافه من يخشى الله عزّ وجلّ ، والذى يعنى أن يُساءلوا ويناقشوا فى كل شىء ، وهؤلاء لا يزعمـــون أن صفحتهم بيضاء ، وأنهم ليس عليهم غبار ، فإنهم ليسوا من الملائكة المطهرين ، وليسوا أنبياء معصومين ، إنهم يخافون الله دائمًا كما ذكر الله تعالى أيضًا فى وصف المتقين : ﴿ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧] قال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] .

الصبر ابتغاء وجه الله :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ وهذه مجموعة جديدة من الصفات بدأها القرآن الكريم بالصبر ، والصبر : هو حبس النفس على ما تكره مما يقتضيه الشرع أو العقل ، والصبر ضرورة دينية ودنيوية ، فلا يستطيع الإنسان أن يفلح ولا أن يفوز بما يحب ولا أن يسلم مما يكره إلا بالصبر .

وأولو الألباب هؤلاء من أوصافهم الصبر بأنواعه المختلفة ، فهم يصبرون على بلاء الله عزّ وجلّ كما صبر أيوب عليه السلام ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نِّعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ٤٤] .

ويصبرون عما نهى الله عزّ وجلّ من المعاصى مثل صبر يوسف عليه السلام إذ ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف : ٢٣] وتهيأت له أسباب المعصية فأبى واستعصم ، وقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

ويصبرون على طاعة الله عزّ وجلّ مهما كان فيها ، ولو كان قطع الرقبة ، كما كان فى صبر إسماعيل الذبيح عليه السلام الذى قال له أبوه الخليل عليه السلام : ﴿ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

ويصبرون على مشاق الدعوة إلى الله ومتاعب الطريق إلي الله مهما طال الطريق مثل صبر نوح عليه السلام الذى ظل ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : ١٤] يدعو إلى الله ، يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، سرًّا وجهاراً ، وهو صبر أولى العزم من الرسل الذى أمر الله سبحانه وتعالى به رسوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وقد فصلت هذه الأنواع والمراتب للصبر فى كتابى « الصبر فى القرآن الكريم » (١) .

فأولو الألباب هؤلاء وصفهم الله تعالى بالصبر ، ولم يذكر القرآن هنا على أى شيء صبروا ، ولا عن أى شيء صبروا ، وإنما أطلق وصفهم بالصبر ، وغيّر صيغة الوصف من المضارع « الذين يوفون .. ، ولا ينقضون .. ، ويصلون ، ويخشون .. ، ويخافون .. » إلى الماضى :﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِم ﴾ مما يدل على تحقق الصبر ، ويدل على أهمية الصبر فى الدين ، ولذلك نجد القرآن فى آية البرّ قد ذكر الصابرين بصيغة متميزة فقال : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] مع أن العطف على ما قبلها كان يقتضى الرفع إذ السياق فى الآية ﴿ ... وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴾ [البقرة : ١٧٧] ولكنها نُصبت على الاختصاص أو المدح أى وأخص الصابرين وأمدحهم ، وما ذلك إلا لأهمية الصبر فى دين الله ، ولذلك قال الله عز وجل هنا : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ ولم يقل « والذين يصبرون » وهذا يدل كما تقدم على أن الصبر لابد أن يكون متحققاً واقعاً .

وميزة هؤلاء أنهم صبروا ابتغاء وجه ربّهم ، فقد يوجد من يصبر ، مراءاة للنّاس ومراعاة للخلق ليقول الناس : ما أصبره عند النوازل ، وما أثبته عند

---

(١) انظر كتاب فضيلة الشيخ القرضاوى « الصبر فى القرآن الكريم » من ص ٤١ إلى ص ٥٨ ، حيث تحدث بالتفصيل عن ستة مجالات للصبر فى القرآن الكريم ، وتحدث فى مواضع أخرى من الكتاب عن حقيقة الصبر فى القرآن الكريم وكم ذكر الصبر فى القرآن والباعث علي الصبر ، ومنزلة الصبر والصابرين وشخصيات صابرة ، وتحدث أيضاً عما يعين على الصبر فليرجع إليه .

الزلازل ، وما أحمله للمصائب ! إنه ثابت ثبات الجبال ... إلخ ،وقد يوجد من يصبر ، حتى لا يعاب بأنّه جزوع هلوع ، وحتى لا يشمت به الأعداء كما قال الشاعر :

وتجلدى للشـــامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

وقد يوجد من يصبر ، لأنه لا يجد غير أن يصبر ، فلا فائدة فى الجزع ، وإذا جزعت الآن فسوف أنتهى إلى الصبر ، وإذن أصبر الآن ، ثم يصبر وهو لا يخطر بباله أن يرضى الله عزّ وجلّ .

فمزية هؤلاء العقلاء أولى الألباب أنهم إذا صبروا فعلوا ذلك ابتغاء وجه ربهم ، وهذا تعبير قرآنى : أنهم يحتسبون هذا الأمر عند الله ابتغاء مثوبته لا يريدون شيئًا للنفس ولا للغير ، إنما يريدون وجه الله عزّ وجلّ .

هناك بعض دعاة الأخلاق يتحدثون عن شىء اسمه الواجب « دعاة الواجب » ومنهم (كانت) الفيلسوف الألمانى الشهير ، هؤلاء يقولون : إن الدّين لا يعرف الأخلاق القائمة على أمر الواجب ، إنما يقوم فقط على العمل من أجل الجنة والنار ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، ونسوا أن القرآن يحث ويربط الإنسان أن يفعل ما يفعل لوجه الله عزّ وجلّ وإرضاء له ، ولاينافى ذلك أن يطلب مثوبته ويهرب من عقوبته ؛ لأن المعيب هو أن يطلب المصلحة المادية الآنية الشخصية العاجلة ، أما أن يرنو إلى ما هو أعلى من ذلك ، وما هو أبعد من الدنيا ، وما هو أوسع من المصلحة الشخصية ، وما هو أعمق من الناحية المادية فهذا لا يعاب .

فهؤلاء أولو الألباب وصفهم القرآن بأنهم : صبروا ابتغاء وجه ربهم ، كما جاء فى القرآن ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر : ٧] .

الصبر لله عبادة :

ولهذا كان صبرهم عبادة لله سبحانه وتعالى ،والعبادات ليست هى الظاهرة فقط من الصلاة والزكاة والصيام والحج والتلاوة والذكر والتسبيح ، ولكن هناك عبادات باطنـــة منها الصـــبر لله ســبحانه وتعالى ، وأنا أسميها (الأخلاق